بسم الله الرحمن الرحيم

٩٤ - الشرح

مكية . وقيل : مدنية ، وهو الأقوى عندى . فإن استقرار هذه النعم المعدودة فيها ، إنما كان بالمدينة المنورة ، كما لا يخفى . وآيها ثمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

[٢] (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ)

[٣] (ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ)

[٤] (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » أى : ألم نوسعه بإلقاء مايسره ويقويه ، وإظهار ماخفى عليه من الحكم والأحكام ، وتأييده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم وصار مستقرّ الحكمة ووعاء حقائق الأنباء ، والهمزة لإنكار النفى . ونفى النفى إثبات . ولذا عطف المثبت عليه . وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه ، وما خفى منه . استعمل فى القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده . فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيعاً . وذلك لأنه بالإلهام ونحوه ، مما ينفس كربه ويزيل همه ، بظهور ما كان غائباً عنه وخفيًّا عليه ، مما فيه مسرته. كما يقال (شرح الكتاب) إذا وضحه. ثم استعمل فى الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه . لأن اتساع الشىء يتبعه اتساع ظرفه. ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً . ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً . وهو من المجاز المتفرع على الكناية بوسائط ، وبعد الشيوع زال الخفاء وارتفعت الوسائط ـ هذا ماحققه الشهاب. «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ» قال الشهاب : الوزر الحمل الثقيل . ووضعه: إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ (على) كان بمعنى التحميل . وإذا تعدى بـ (من) كان بمعنى الإزالة . والإنقاض: حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر. وقيل: صوت الجمل أو الرحل

أو المركوب إذا ثقل عليه . فالإنقاض، التثقيل فى الحمل حتى يسمع له نقيض، أى صوت، كما قاله الأزهرىّ .

وقال ابن عرفة: هو إثقال يجعل ماحمل عليه نقضا . أى مهزولًا ضعيفاً. وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه ، مما كان يثقل عليه ويغمه من قلة المستجيبين لدعوته، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال فى جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضعه عنه هو كثرة من آمن بعدُ ، ودخولهم فى دين الله أفواجاً ، وقوة أتباعه وانمحاء الشرك والجاهلية من الجزيرة، وذل أهلها بعد العز، وانقيادهم بعد شدة الإباء. وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله[1] (لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ).

والوجه الأول أقوى ، وفى الآية ، على كلٍّ ، استعارة تمثيلية . والوضع ترشيح لها «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» أى بالنبوة وفرض الاعتراف برسالته وجعله شرطاً فى قبول الإيمان وصحته. وقال قتادة: رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة. فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد: أى لا أذكر إلا ذكرت معى. قال الشهاب وهذا ـ أى المأثور عن مجاهد ـ إن أخذ كلية خالف الواقع . فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عين موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح . وإن جعلت القضية مهملة ، فلا يخفى ما فى الإهمال من الركاكة .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلج الصدر ، ويردّ السائل غير صفر ، حتى لاح لى أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذكر فى مجامع العبادة ومشاهدها. فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره فيها فى الواقع فى الصلوات والخطب. فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام

---

(١) [٤٨/ الفتح / ٢] .

إلا وهو كذلك. فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى فى يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالى بل ولا فى وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه الكلية. فإن قلت: من أين لك هذا التقييد، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح ؟ قلت : المقام ناطق بهذا القيد. فإن المراد التنويه بذكره ﷺ وإشاعة قدره، الدال على قربه ﷺ من ربه، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره فى المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد. وأى إشاعة أقوى من الأذان؟ لا فى الأسواق والطرق التى يطرح فيها كل ذكر .

ثم قال : واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعىّ فى أول (رسالته الجديدة) وبينه السبكىّ فى تعليقة على الرسالة فقال رحمه الله تعالى :

قال الإمام رضى الله تعالى عنه عن مجاهد فى تفسير الآية : لا أذكر إلا ذكرت معى : أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمدا رسول الله. قال الشافعىّ: يعنى ذكره عند الإيمان بالله والأذان ، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

قال السبكىّ : هذا الاحتمال من الشافعىّ جيد جدًّا . وهو مبنى على أن المراد بالذكر ، الذكر بالقلب ، وهو صحيح . فعلى هذا يعم . لأن الفاعل للطاعة أو الكافّ عن المعصية امتثالًا لأمر الله تعالى به ، ذاكر للنبىّ ﷺ بقلبه ، لأنه المبلغ لها ، عن الله . وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والتشهد والخطبة ونحوها . قال الشافعىّ : فلم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت ولا بطنت ، نلنا بها حظًّا فى دين أو دنيا . أو رفع عنا بها مكروه فيهما أو فى واحد منهما ، إلا ومحمد ﷺ سببها . فعلم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره ، حمل الذكر على الذكر القلبىّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة ، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله ، تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته ، وهو رسول الله ﷺ ، كما قيل :

فأنت باب الله . أىّ امرئ أتاه من غيرك لا يدخل ؟

ولك أن تقول: المراد برفع ذكره تشريفه ﷺ ، بمقارنته لذكره فى شعائر الدين الظاهرة، وأولها كلتا الشهادة، وهما أساس الدين ثم الأذان والصلاة والخطب. فالحصر إضافىّ . انتهى كلام الشهاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا)

[٦] (إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا)

[٧] (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ)

[٨] (وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب)

« فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا » إشارة إلى أن الذى منحه، صلوات الله عليه، من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب فى أول السير، كان على ما جرت به سنته تعالى فى هذا النوع من الخليقة . وهو أن مع العسر يسراً . ولهذا وصل العبارة بالفاء التى لبيان السبب. (وأل) فى (العسر) للاستغراق ولكنه استغراق بالمعهود عند المخاطبين من أفراده أو أنواعه . فهو العسر الذى يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدوّ ، وقلة الوسائل إلى المطلوب . ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعدّ لذلك فى معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لاتضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الأولى ، فلا ريب فى أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبىّ ﷺ . فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك، وهو الوحى والنبوة . ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئاً من عزمه. بل مازال يلتمس

الغنى فى الفقر، والقوة فى الضعف، حتى أوتى من ذلك مازعزع أركان الأكاسرة والقياصرة، وترك منه لأمته ما تمتعت به أعصاراً طوالًا . أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تنكير (يسراً) للتعظيم . والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفى كلمة (مع) إشعار بغاية سرعة مجئ اليسر، كأنه مقارن للعسر. فهو استعارة، شبه التقارب بالتقارن، فاستعير لفظ (مع) لمعنى (بعد) . وقوله تعالى « إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا» تكرير للتأكيد، أو عِدَةٌ مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة . وعليه أثر[1] : (لن يغلب عسر يسرين) فإن المعرَّف إذا أعيد يكون الثانى عين الأول، سواء كان معهودا أو جنساً. وأما المنكّر فيحتمل أن يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالأول « فَإِذَا فَرَغْتَ » أى من عملٍ من أعمالك النافعة لك ولأمتك « فَٱنصَبْ » أى خذ فى عمل آخر واتعب فيه . فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام « وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب » أى فى الدعوة إليه . أى لاترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشانىّ .

وقال ابن جرير[2]: اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه . إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم فى حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد ، والأظهر عندى ، اعتماداً على ماصححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل ـ أن يكون معنى قوله تعالى

(١) هذا الأثر أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى: ٢١ـ كتاب الجهاد، حديث ٦ (طبعتنا) ونصه : عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم . فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة ، يجعل الله بعده فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ... الخ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ) أى فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ، بمجىء نصر الله والفتح ، فانصب فى العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ، وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته . فتكون الآيتان بمعنى سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثرناه جميعه . إلا أن السياق والنظائر ـ وهو أهم ما يرجع إليه ـ يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه . والله أعلم .